علماء العرب 1

ابن النفيس

مكتشف الدورة الدموية الصغرى

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

ابـــن النفيــس

مكتشف الدورة الدموية الصغرى

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب : ابن النفيس
سلسلة علماء العرب
المؤلف : سليمان فياض
تصميم الغلاف : بديعة ميدات
الناشر : منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر
الهاتف/فاكس : 61 89 23 21 213 / 85 64 23 21 213
الهاتف : 32 68 23 21 213 / 16 89 23 21 213
فاكس : 90 64 23 21 213
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-278-5
Dépôt légal : 1698-2006

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

العودة من حمص

إلى قريةِ (القَرَشيّة) عَاد مِن «حِمص» شابٌ طويلُ القامةِ، نحيفُ العُودِ، مُستطيلُ الوَجهِ، اسمُه:أبُو العَلاء «علاءُ الدّين عليّ بنُ أبي الحَزْم بن النّفيس القَرَشِيّ»، وكانَ قَد أتَمّ دِراستَه في مَدينةِ «حمص» السورية، للفِقه، وللحَديث، ولعلومِ اللّغة العربيّةِ مِن نَحوٍ، وصَرفٍ، وبَيانٍ، ومَعانٍ، وبَديعٍ.

وفرِح بعودتِه أبواهُ، وأقاربُه، وأَهلُ حِمص، فسُوفَ يَكون «عليّ» هو عالمُ الفِقهِ واللّغةِ في قريةِ القَرَشيّة. لكن علاءَ الدّين عليّ بَدّدَ فَرحَتهم، فَقَد أعلَن لَهُم عَزمَه على الرَّحيلِ إلى دِمشق، لكي يَدرُسَ الطّبَّ في مُستشفاها الكَبير، المعروف آنذاك بالبيمارستان النُّوري.

ودهِش وَالدُه أبُو الحَزم. وعَارَض رَغبَتَه وعَزمَه، فقالَ له عليّ:

– علماءُ الفقهِ واللّغةِ في زمانِنا كَثيرُون. والأطبّاءُ قَليلُو العددِ في بلادِ العربِ والمُسلمين. و أنا أَميلُ إلى دِراسة الطبّ، لأعرفَ أَسرارَ قُدرةِ اللّه في الجِسمِ، ولأفيد بعلمِي وعَقلِي، وحبِّي للطِّبّ، المَرضَى مِن عِبادِ اللّه.

وأدركَ أبُو الحَزم صِدقَ وَلدِه في عَزمِه، وأنَّه لَن يرجعَ أبَدًا عَن قَرارِه، وأدركَ أنَّه قَد بَلَغَ سِنَّ الرُشْدِ، فَسلّمَ لولده بِما يريدُه، وزوَّدَه بمالٍ وَفير.

وخرجَ لوداعِ عليّ، في سَفَرِه إلى دمشقِ، الأقاربُ وأهلُ القَرَشية، ولم يُفكّرْ أحدُهم، لحظةً، أنَّ أبا العلاء عليّ لَن تُقدَّر لَه العَودةُ إلى القَرَشيّة، ولا إلى حِمص، مرةً أُخرى.

واحـة هادئة

كَانت دِمشق قَد وَرِثَت مَجدَ بَغداد الطبّي، وازدهرَ فيها الطبُّ بفضلِ حكامِها الأيّوبيّين، حتّى صارَت دِمشقُ مَركَزًا هامًا للعُلومِ والفُنونِ. وصارت مَوطنًا ثانيًا للحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّة، بعدَ أن خَبَا ضِياءُ العلمِ في بغدادَ، والأندَلُس.

وَكَانت دِمشق، في القَرنِ الثّالث عشَرَ، واحةً هادِئةً، وسَطَ عالَمٍ يَسودُه الاضطرابُ، والصِّراعاتُ المَذهبيّةُ والقَبَليّة، والمُنازعاتُ السيّاسيّة، وانقِسامُ الدّولةِ الإسلاميّة الكُبرى إلى عدد من الدّولِ والممالكِ والسّلطنات. والى دمشقَ والقاهرةِ فَرَّ العُلماءُ بعلمِهِم وكُتُبِهم مِن بغدادَ، ومِنَ الأندَلُس.

وفِي دمشقَ، كانَ «نورُ الدّين زنكي»، الذي كانَ يومًا واليًا (أتابكًا) على دِمشق، قَد أنشَأَ مَكتَبَةً ضَخمةً حَوَتْ الآلافَ من نَفائسِ الكُتُبِ في كُلِّ عِلمٍ وفَنٍّ، ودارًا للمَرضَى (بيمارستانا)، اجتَذَبَ إليهِ أمهَرَ أطِبّاءِ عَصرِه، في القَرنِ السّابعِ الهجرِيِّ، الثّالث عَشر الميلادِيِّ، وبينَ هؤُلاءِ الأطباء، كانَ تلاميذُ الطَّبيبِ النّصرانِيّ الشّهير: «أمينُ الدّولةِ ابنُ التلميذ البغدادي». وقَد حَمَلُوا مَعَهم أشهَرَ مُؤَلّفاتِ الطبِّ في عَصرِهِم، وفي مقدمةِ هذه المؤلفات:

كتابَ «القَانون» للشّيخِ الرئيسِ «ابنِ سينا»، وكتابُ «الحاوِي» للطَّبيب «أبو بكر الرازي»».

وفي دمشقَ، تَوَجَّهَ الشابّ «أبو العلاء عليّ». وقدَّم نَفسَهُ للطَّبيبِ الأستاذ الدّخْوار «مُهَذّبُ الدّين عبدُ الرّحيم»، طَبيبُ العُيونِ الشَّهير، ومديرُ البيمارستان النّوري، ورَئيسُ أطباءِ سورية ومصر، وقالَ لَه أبُو العلاء عليّ، وهو ابنُ السّتةِ عشرَ رَبيعًا:

- جئتُ يا سَيّدي مهذّبَ الدّين لأتعلّمَ الطّبَّ على يَديْك، وأنا لا أعرِفُ فيهِ حَرفًا واحِدًا.

ورحَّبَ الطّبيبُ الدّخْوار بالشابِّ أبي العُلاء عليّ، دارسِ اللُّغةِ والفقهِ والحَديثِ. وزادَ تَرحيبُه به، وتَفاؤُله لَه، حين عَرَفَ أنَّ أبا العلاء قد وُلِدَ في نَفسِ السَّنةِ التي صارَ هو فيها رَئيسًا للبيمارستان النُّوري، عامَ ستمائةٍ وسبعةٍ هجريّة، ألفٍ ومائتين وعشرةٍ ميلاديّة. وصَحِبَه الدّخْوار في جولةٍ بالبيمارستان النُّوري.

في البيمارستان النُّوري

دَهِشَ أبُو العلاء عليّ في جَولَتِه بالبيمارستان ممَّا يراه: فالبيمارستان بِهِ أَقسامٌ مُنفَصِلة، للمَرضَى من الرِّجالِ، وللمَرضَى مِنَ النِّساءِ، وللمَرضَى مِنَ الأطفالِ، ولِمَرضَى الأمراضِ العَقليّة، وبِه قاعاتٌ مُخَصَّصَةٌ لأنواعِ الأمراضِ، حتّى لا تنتقِلَ عَدْواها من مَرضَى بعِلَّة ما، إلى مَرضَى بعلَّةٍ سواهَا، وأُلحِقَتْ بِه صيدليةٌ عامرةٌ بمُختَلِفِ الأدويَةِ الطَّبيعيّة من عقاقيرَ وأعشابٍ، والأدويةِ الكيماويّةِ المُفْرَدةِ والمُركّبَة. والأطباءُ المعالجون يَدُورون على المَرضَى في القاعاتِ، يتفَقَّدونَ أحوالَهم، يُحيطُ بِهِم المُشرفُون الذين يَقومُون على خِدمَةِ المَرضَى، ويسارعُون بتقديمِ ما يَكتُبه الأطباءُ للمَرضَى من دَواءٍ.

وزادَ عَزمُ أبِي العلاء عليّ، بعد أن رَأى ما رآه، على دراسةِ الطّبِّ، ولَم يُخْفِ انبهارَه بما رآهُ عَن أُستاذِهِ الدّخْوار. فقالَ لَهُ الدّخْوارُ ضَاحِكًا:

- إنّكَ لَن تَرَى مثلَ ما رَأيتَه الآنَ يا أبا العلاء، في أيِّ دارٍ للمَرضَى إلاّ في ديارِ الإسلامِ. ولَو قُدِّرَ لَكَ أَنْ تَذهَبَ إلى بلادِ الفرنْجَة، فسُوف تَرَى عَجَبًا هُناكَ: المرضَى كلُّ أربعة في سَريرٍ واحد، دُونَ تَفريقٍ بينهم في نوعِ المرضِ، فتَنْتَقِلَ بَيْنَهُمْ أمراضٌ لَم يَكونُوا مُصابينَ بِها مِن قَبل.

مجلس الأطباء

وفي اليومِ التّالي، صَحِبَ الدّخْوارُ الشابَّ أبا العلاء إلى مجلِسِ أطباء المستشفى. فرأى بينهُم الطَّبيبَ الشّيْخ «رَضيِّ الدّين الرّحَبي» أستاذُ الدّخْوار، الذي يَربو عمرُهُ عَن تسعينَ سَنَةً، والطّبيبَ الشَّيخ: «عمرانُ الإسرائيليّ»، الذي يزيدُ عمرُه على ستّينَ سنةً. وقالَ الدَّخْوارُ لأبِي العلاء عليّ:

– من حُسن حَظّك يا أبا العلاء أنَّ طَبيبنا الشَّيخ عمران يَزورُ البيمارستان في هذه الأيّام، لعلاج بَعض الحالات الخاصّة، كدأْبه معَنا، كُلَّما كُنّا في حاجة إليه.

وعَرَفَ أبو العلاء أنَّ الطَّبيبَ الشَّيخ عُمران كانَ بِدَوْره تلميذاً للرَّحَبي مَعَ الدَّخْوار، وأنَّه خَيْرُ مَن يُعالجُ المَرضَى منَ الأمراضِ المُزْمنة، وأنَّ لَهُ الفَضلَ الكَبيرَ في تَزويد البيمارستان النُّوري بكتبِ الطّبِّ الهامّة، وأنّه يَرفُضُ صُحبةَ المُلوك، ليظلَّ علمُه وطبُّه للجَميع.

وقدّم الدَّخْوارُ لأبي العلاء عليّ زُملاءَ لَهُ، سَيَدْرُسونَ الطّبَّ مَعه بالبيمارستان النُّوريّ، وبينَهُم: «ابنُ أبي أُصَيْبِعَة»، و«بَدْرُ الدّين المُظفَّر»، و«عبدُ اللّطيف المهندس»، و«يوسُفُ السَّبْتي».

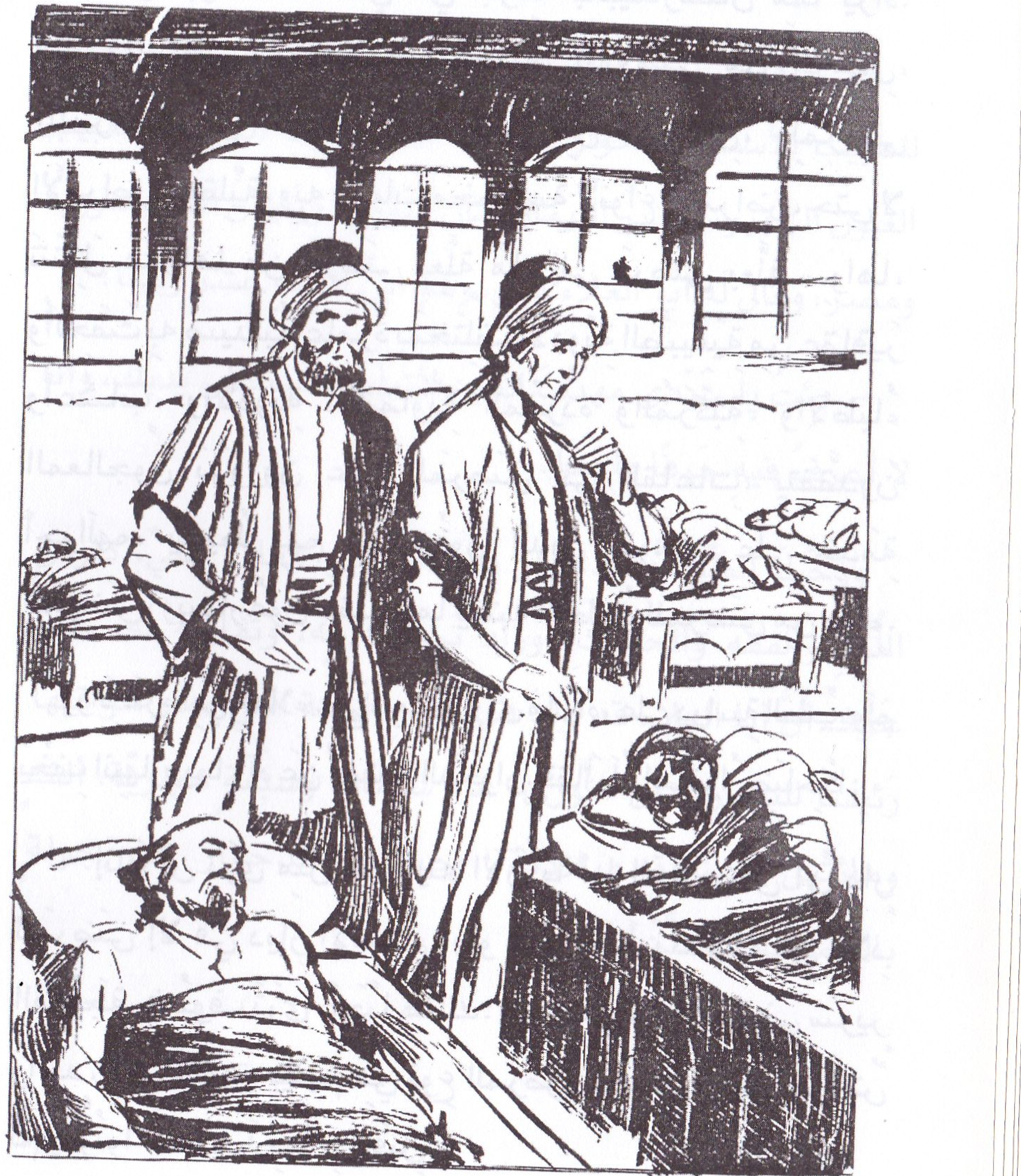

كانَ مجلسُ الأطباءِ في إيوانٍ فَسيحٍ بقَلْعَةِ البيمارستان، وكانت الكُتُبُ الطِّبِّيةُ مَصفوفةً في جَوانِبه، وعَلى مَداخلِه. وكانت الأرضُ كلُّها مَفروشةً بالبُسُطِ، مُزَوَّدَةً بالوسائدِ والطَّنَافسِ الشَّرقيّة، والمناضدِ الواطئَةِ المعدَّة للقراءةِ وللكِتابةِ.

وبَدَا الإيوانُ لأبي العُلاء عليّ قاعةً كبيرةً للدَّرسِ، غارقةً في الضَّوءِ مِن كلِّ جانبٍ.

وأرْهَفَ أبو العُلاء سَمعَه لأطباءِ البيمارستان، وهُم يَطرحُون ما صادَفَهُم في يَومِهِم من مُشكلات طبِّيّة على الأطباءِ الصِّغارِ والكِبارِ. وظلَّ أبو العُلاء مَشدودَ النَّظَرِ والسَّمعِ في الإيوانِ ثلاثَ ساعات. وكانتِ الشَّمسُ في الخارجِ تَغرُبُ في الأفُقِ، يَعكِسُ شَفَقَها علَى الجُدرانِ زُجاجُ النَّوافذِ المُتعدِّدُ الألوانِ.

وبَدأَ أطباءُ البيمارستان يَنفَضُّونَ منَ المَجلس. وبَقِيَ الأطباءُ الثلاثةُ العظامُ مع تلاميذهم الجُدُد ومن بَينِهم أبُو العُلاء، يُعلِّمونَهم الطبَّ في الكُتُبِ المُبَسَّطةِ. وكانَ خَدَمُ البيمارستان يُضيئُون القَناديلَ والمِشكواتِ في الإيوان.

وحانَ وَقتُ الانصرافِ عِندَما انتَصَفَ اللَّيلُ. ونَهضَ الدَّخْوارُ قائِلاً لأبِي العلاءِ عليّ:

- أمازلتَ عازِمًا على دراسةِ الطّبِّ يا بُنَيَّ؟

فَقال لَهُ أبُو العُلاء علِيّ:

- بَل ازْدَادَ عَزمِي على دراسته يا أستاذي.فَهُنَا، في هذا البيمارستان، أجِدُ العلمَ بالطّبِّ، وأجِدُ الخِبرةَ والعملَ بِه. وسوفَ لا يخيبُ ظَنَّك فِيَّ يا سَيِّدي مهذِّبَ الدّين.

عالـم طَبـيـبٌ

مَضَت على أبِي العُلاء فِي دِمشق عَشرُ سَنَوات. وَصارَ إمامًا فِي علمِ الطِّبِّ، يُضاهِي بعلمِه فيه أساتذتَه العِظَام. وأَصبَحَ مَعروفًا في الشّامِ كلِّه باسم «ابنُ النّفيس»، اللّقبُ الذي تَحمله أسرته. وتَناهَتْ شُهرتُه العلميّةُ إلى أقارِبه وأهلِ قَريَته «القَرَشية»، وإلى رِفاقه في دراسةِ اللُّغةِ والفقه بِحمص، فَزَهوا بِه، وافتَخروا بأنَّه واحدٌ منهُم.

وذاتَ يَومٍ مَسَحَ الدَّخْوارُ بيدِهِ على رأسِ ابنِ النَّفيس فِي حُبٍّ، وقالَ لَهُ:

- إنَّكَ يا بُنَيَّ ستَكونُ في الطّبِّ عالمًا، وأرجُو للطّبِّ كعلَمٍ، تَقدُّمًا عَلى يَديك في مُقبلِ السّنين، فَتُضيفَ إليه بالتَّأليفِ فيه، فَوقَ ما أضافَه إليه: «جَالِينوس» و«أبقْراط» و«ابنُ سينا». فلا تُضيِّع وَقتَك

كُلّه يا ابنَ النّفيس في العِلاَج والمُداواة. وتذكّر دائمًا يا بُنَيَّ، أنّك في الطّبِّ من أهلِ العلمِ فيه. ولَستَ مِن أهلِ الخبرَةِ كَطبيبٍ مُعالجٍ.

وبَدأَ أبُو العُلاء يَعْمَلُ لتَحقيقِ ما نصحَه بِه أُستاذُه الدَّخْوار. فَعكَفَ على دراسةِ طبِّ اليُونانِ القَديم، عندَ «جالينوس»، و«أبُقْراط» حتّى استوعبَهُما دَرْسًا وحِفْظًا، من كثرةِ قراءَتِهِ ومُراجعتِه لَهُما. بَل وشَرَعَ في التَّعليقِ على آرائهما في الطبّ. كَذلك عَكَفَ على دراسةِ آراءِ ابنِ سينا الطبِّيةِ، في كتابه: «القانون». وكان ابنُ سينا في زمانِه أبًا وَحيدًا للطّبِّ في عَصرِهِ، وعلَمًا فَريدًا فيه، لا يَلْحَقُ أحدٌ له بِغبَار.

دَعوة إلى القَاهرة

كَانت القَاهِرة، آنذاك، هي عاصمةُ الدّولةِ الأيّوبيّة، وكانَ الكَامِلُ محمد هو مَلِك هذه الدَّولة. وشاءَ المَلِكُ الكاملُ أنْ يُعزِّزَ البيمارستانَ النّاصريّ الذي بَناهُ يَومًا صلاح الدّين الأيوبيّ بالقاهِرة، بصَفْوةٍ مِن الأطباءِ في دمشقِ. فَكَتَبَ إلى واليه عليْها، ليوفِدَ إليه صفوةً مِن خَيرةِ أطباءِ البيمارستان النّوري بدمشق، وأشارَ الدّخْوار على والي دمشق بإيفادِ عددٍ مِن تلاميذه مصر، كانَ مِن بينهُم: عبدُ اللَّطيف المهندس، ويوسُفُ السَّبتي، وابن أبي أُصَيْبِعة. وفي طليعتِهم كَان عالم الطبّ ابن النَّفيس. وعجّل الكُلّ بالرَّحيلِ إلى القاهِرة، فلمْ يجد ابنُ النَّفيس وَقْتًا لوداعِ أهلهِ في القَرَشيّة، ولا رِفاقِهِ في حِمص.

* * *

كانَ الطّبُّ في مِصر، عندَما وصَلَ ابنُ النَّفيس إلى القَاهِرة، لاَ يَقِلُّ مُستواه عَن مُستوى الطِّبّ في بيمارستانات العَواصم الإسلاميّة الأخرى. بل إنّ مُستوى الطبِّ في مصر كان يَزيدُ عليها جميعًا، منذُ عَصْر الرَّشيد. ولقد عَرفت مِصر في ظلِّ الإسلام طائفةً من الأطباءِ العظامِ على مَرِّ العُصور.

كانَ من بينهم: «ابنُ رَضوان»، و«ابنُ مَطروح»، و«ابنُ زَيْرَك»، و«سَعيدُ بن تُوفيل»، «ابنُ رَحْمون»، و«الشّيخُ السّديد»، و«ابنُ مَيْمون»، و«ابنُ أبِي حُلَيْقَة»، و«ابنُ البيطار».

وكانت القاهرةُ قد عرفَتْ عددًا من البيمارستانات: بيمارستان القَيْصريّة، الذي أنشأه الملكُ البيزَنطِي «باسيلْيوس الأكبر» قبلَ الهِجرةِ المُحمّديّة بقرنٍ ونصف قَرنٍ، وكانَ مَقرُّ هذا البيمارستان بحارةِ القناديلِ بفسطاط القاهرةِ (مِصر القَديمة الآن). وبيمارستانُ حَيِّ المعافِر الذي شُيِّدَ في عَهدِ الخَليفةِ العباسِي المُتوكِّلِ على اللّه. والبيمارستان الأعلى الذي أنشأهُ ابن طولُون في حيّ العَسْكر. والبيمارستانُ الأسفل الذي أنشأهُ كافُورُ الإخشيدي. والبيمارستان الناصريّ الذي أنشأهُ صلاحُ الدّينِ الأيّوبي، وهو البيمارستانُ الذي جاءَ ابن النّفيس إليه، ليكونَ واحِدًا من أطبائِه العِظام.

كانَ البيمارستانُ الناصريّ يَشْغَلُ جُزءًا من قصرٍ كانَ الفاطِميُّون قَد بَنوه، يُقال إنَّ به طِلسمًا يَحميه مِن تسلُّلِ النَّملِ إليه. وكانَ بابُ هذا البيمارستان يَفْتَحُ على حَارةٍ، كانت تُعْرف آنذاك باسمِ: «حارةُ قائد القوّاد» وتُعرَفُ هذه الحارة الآن بِاسم «حَارةُ المُلُوخيّة».

ودَخَلَ ابنُ النَّفيس مع رفاقِه من أطباءِ دِمشق إلى البيمارستانِ النّاصرِيّ، في سنةِ ستمائةٍ وثلاثةٍ وثَلاثينَ هجرية، ألف ومَائتين وثَمانِي وثَلاثينَ ميلاديّة، ولَه مِنَ العُمرِ ثماني وعشرونَ سَنَةً. ورَأى البيمارستان النّاصرِيّ مُمَاثِلاً في نِظامِه للبيمارستان النُّوري: الأقسام، والقاعات، والمكتبة، والصيْدليّة، وإيوانُ الدرْس، الذي يَلتَقِي فيه أطباء البيمارستان عَصرَ كُلِّ يَوم. ويجتَمِعُ فيه طُلاّبُ الطبِّ بأساتذتهم بعدَ كلّ غُروبٍ.

* * *

فِي كلّ يومٍ، كانَ ابنُ النّفيس، الشابّ النّحيفُ الطّويل، يَمشي بهدوءٍ وتُؤدَة، كشيخٍ جَليلٍ وَقور، فيُشيرُ إليه أهلُ الحَيّ بهيْبَة واحتِرامٍ. ويَتجوَّل في الحواري بَينَ مَنزِله والبيمارستان بجوارِ قصر الفَاطميّين.

وَفي كلّ يوم، كانَ ابنُ النَّفيس يذهبُ إلى المدرسةِ المَسْروريّة، ليدرُسَ الفقه الشافعِيّ، العلمَ الذي لم ينسَ تَفوُّقه فيه، مثل تَفوُّقِه في علمِ الطِّبّ.

وفِي يَومِ الجمعة، من كلِّ أُسبوعٍ، كانَ ابنُ النَّفيس يَستَمتِعُ بإجازتِهِ الأُسبوعِيّة، يتَّجِهُ غَربًا مِن حيِّ الأزهَر، إلى نَهرِ النّيل،

ويسيرُ مَع مَجراه إلى فُمِّ الخَليج، ثم يعودُ على الشَّاطىء مِن فَمِ الخَليج إلى شَارع سَعد الدّين فشارعِ نُوبار، فَشارع الشَّيخ رَيْحَان، ثم ينعطِفُ مَعَ شاطِىء النّيلِ شَرقًا إلى عماد الدّين. وكانَ هذا الشارعُ آنذاكَ هو نهايةُ القاهرة، عندَ قريةِ «أُمّ دُنَيْن»، التي يشغَلُ جانبًا مِنهَا الآن جامعُ أولادُ عنان.

وَعند ثَغْرِ النّيل، ميناءِ القاهرة في «ميدانِ رَمسيس الآن» كانَ ابنُ النَّفيس يتوقَّفُ، ويرقُبُ ما حولَهُ من مصانعَ وترْسَانات أنشأَ فيها المُعزّ لدينِ اللَّه الفاطمي أساطيلَه البَحريّة، وكذلك فعلَ مِن بَعدِه صَلاح الدّين الأيّوبي، للقضاءِ على أساطيلِ الصَّليبيّين في البحرِ الأبيَضِ المتوسِّط.

وكانَ ابنُ النَّفيس يَرقُبُ مِن مَكانِه جَزيرةً جَديدةً لا تَزالُ تتَكَوَّن في عرضِ النّيل، حَولَ مَركبٍ غَرِقَ في الثّغْرِ، هي «جزيرةُ الفيل» التي عُرفَت فيما بعد، باسمِ: «جزيرةِ بدران»، في عَهْدِ الأُمَراءِ المماليك، ثم في عَهْدِ الأتراك العثمانيّين، وقد صارَتْ هذه الجزيرةُ في هذينِ العَهْدينِ رَوضةً للتَّنَزُّه، ومَيدانًا للرِّمايةِ والرِّياضَةِ، ثم تكاثَرَت فيها المَساكن، وتُعرَفُ الآن بحيِّ شُبرا.

وتمرُّ الأيام، وابنُ النَّفيس، يتجوَّلُ في نَهارِ كلِّ يومِ جُمعة، في مَدينةٍ دائبَةِ الحركةِ والنَّشاطِ والتَّوسُّعِ والبناءِ.

يَرى قلعةَ الجَبل، وسُورَ القاهرة، والمدارِسَ المَذْهبيّة التي أنشأها الأيّوبيُّون لدِراسة فقه السُّنّة، لمُناهَضَة المذهب الشِّيعيّ في الأزهَر. ويتملَّى عَن كَثَب العمائرَ الأيّوبيّة ويَجلسُ تَحتَ قُبَّةِ جامعِ الإمام الشّافعِيّ، ويرقبُ دائرَتِها، مِن أسفل، روْعةَ زخرفةِ العمارةِ الإسلاميّة.

وكانَ ابنُ النَّفيس يَشهَدُ بينَ عامٍ وآخَرِ الجيوشَ تُعَدُّ للسَّفَر، أو تَعودَ منه، تَدفَعُ غارات الصَّليبيّين عَنِ الشّام، أو عَن دمياط، وغارات مَلِك النُّوبةِ عَلى أسوان، وتَكْسِرُ شَوكَةَ التّتارِ في عَيْن جالُوت، وفي حَلَب. ويَفرَحُ مَعَ أهلِ مصرَ بالنَّصر، ويحزَنُ مَعَهُم للهَزيمةِ، تَلحَقُ بجَيشٍ مِن جُيوشِ المُسلِمين.

ولَقَد حزِنَ ابنُ النَّفيس حُزنًا شَديدًا، وعمرُه ستٌّ وأربعُون سنةً، عندَما عَلِمَ بهُجومِ التّتر بقيادة هُولاكو على بَغداد، وهدْمهم لَهَا، وأحزَنَتْهُ هذه السَّنواتُ المُلَطَّخَةُ بالدَّمِ التي كَتَبَتْها شَجَرةُ الدُّر، وآلَمَه الحُزنُ وأوجَعَه.

كانَ ابنُ النَّفيس قَد عاشَ في مصر تِسعًا وثَلاثينَ سَنَةً، حِينَ نَزَلَ وَباءٌ بأرضِ مِصر، عامَ ستّمائةٍ وواحدٍ وسَبعينَ هِجريّة، ألفٍ ومائتين واثنَين وسبعينَ ميلاديّة. وكانَ ابنُ النَّفيس قَد بَلَغَ مِنَ العُمرِ اثنَتَيْن وستِّين سنةً.

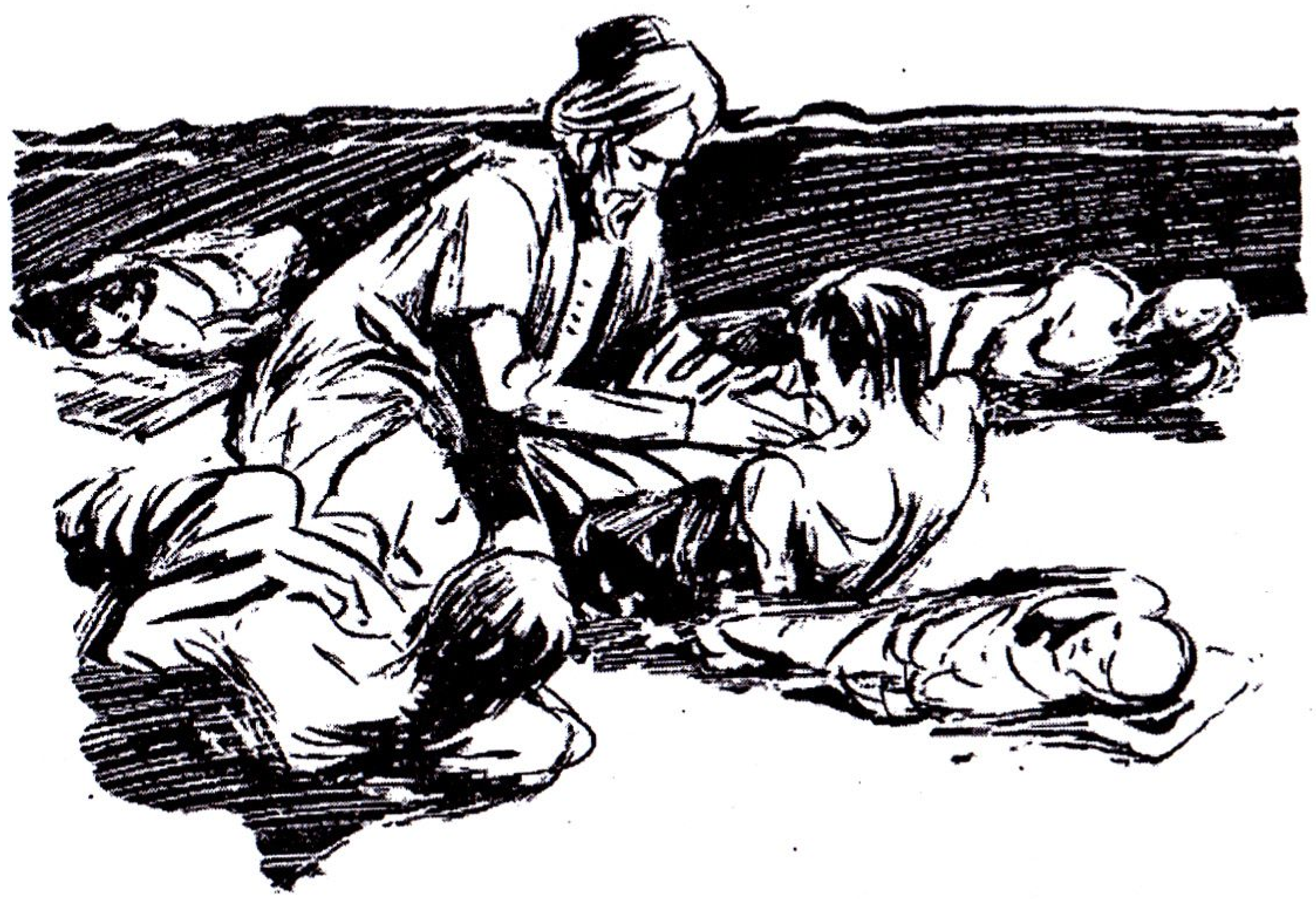

ابنُ النَّفيس يُكافح الوَباء

ووَقَفَ الشَّيخُ الطَّبيبُ ابن النّفيس مَعَ أطباءِ مِصر، يَقودُ الحَملةَ لمُكافحةِ وباءٍ راحَ يَفتِكُ بالنِّساءِ والأطفالِ والرِّجالِ، مُدَّةَ ستةِ أشهرٍ، حتى انتصرَ عليه في النِّهاية، فَنَالَ بانتصارِه هذا مَكانةً مَرموقةً لَدَى حُكّامِ مِصرَ، وشَعبَ مِصرَ. وتَدَفَّقَت عليهِ الأموالُ والهَدايا، فَقَد قامَ بأكبرِ دورٍ في مُكافَحةِ الوَباء، ووَضعَ عَقلَهُ وعلمَه في سَبيلِ هذه الغايَة. وتَوَجَّهَ أهلُ مِصرُ بلَقَب: «المصريّ»، فَصارَ يُعرَفُ باسمِ: أبُو العلاء «علاء الدّين عليّ بنُ أبِي الحَزْم القَرشي المصرِيّ». وفُتِحَت لَه كنوزُ الدُّنيا، كَما فُتِحَت لَه مِن قَبلُ أبوابَ العِلمِ، في اللُّغةِ، والفقهِ، والطِّبّ.

دار للجميع

واختارَ ابنُ النّفيس جزيرةَ الرَّوضة، وبَنَى فيها بَيتًا واسعًا فَخمًا كالقَصرِ، وفَرَشَه بالرُّخامِ، وزوَّد إيوانَه المُرَخَّم بمكتبةٍ عامرةٍ، وبمجلسٍ شَرقِيٍّ، مَفروشٍ بالبُسطِ الإيرانيّة، والوسائدِ والطّنافسِ. وَصارَ يَلقَى في هذا الإيوانِ، مَساءَ كلِّ يومٍ، أهلَ العلمِ مِنَ الفُقَهاءِ واللُّغَويّين والأطبّاءِ، وأهلَ السُّلطانِ مِنَ الأُمَراءِ، والأعيانِ. وكانَتْ دارُه مِن السَّعَةِ والخَيْرِ، بحيثُ يَأكلُ فيها الجَميعُ، ويَسْهَرون، ويَسمُرُون، ويَبيتُ عِندَه فيها مَن يَشاء، حينَ يَطولُ السَّهَرُ، ويَمتَدُّ الحوارُ والنِّقاشُ، وكانَ ابنُ النَّفيس لا يزالُ يَعيشُ أعزَب، بِلا زَوجٍ، ولا ولدٍ. وكانَ يَقولُ لِمَن يُعاتِبُه على عَدَمِ زَواجِه:

- العِلمُ والزَّواجُ لا يَجتَمعان.

* * *

ذاتَ لَيلة، جَلَسَ ابنُ النَّفيس في دارِه، إثْرَ فَراغِه مِن صَلاةِ العِشاءِ، مَعَ القاضي ابن واصِل، والمهذِّب بن أبي حُلَيْقَة، رَئيسِ الأطباءِ، وشَعَر ابنُ المهذّب بحاجَتِه إلى النَّومِ، وقَد طالَ السَّهَرُ، فنامَ في جانِبٍ مِنَ الإيوانِ، وراحَ ابنُ النَّفيس وابنُ واصلٍ

يتحاوَران، ويَتنقّلان في حِوارِهما من علمٍ إلى علْمٍ، وكانَ ابنُ النَّفيس في حوارِه هادئًا، بَينَما كانَ ابنُ القاضِي ابن واصل عاليَ الصَّوتِ، يحتَدُّ في النِّقاشِ، وتَحْمَرُّ عيناهُ، وتنتفِخُ رَقَبتُه، وظلاّ علَى هذا الحالِ إلى أنْ أسفرَ الصَّباحُ، واستَيقَظَ الطَّبيبُ المهذِّب ابنُ أبي خُلَيْقَة مِن نَومِه، وأقَرَّ ابنُ واصلٍ لابنِ النَّفيس بأنَّهُ خزائنُ علمٍ لا تَنْفَد، وأنَّه، لثقتِهِ بعلمِهِ لا يَغْضَبُ، ولا يَعلُو لَه صَوْتٌ.

* * *

وتَأتِي أيامٌ علَى ابنِ النّفيس لا يُدْعى فيها إلى البيمارستان الناصريّ، فَيُفْرِغ نَفسَهُ ويَوْمَه للتَّأليفِ، آنًا في عُلومِ اللُّغة، وآنًا في عُلومِ الدِّين، وآنًا في الطِّبِّ. وكانَ وهُوَ يُؤَلِّفُ يَجلِسُ علَى منضَدةٍ واطئة، ووجهُهُ إلى الحائط، وقد يَرَى له خادِمُه عشَرات مِنَ الأقلامِ، ويأخذُ ابنُ النَّفيس في الكِتابَة، ويُلقَى بينَ بُرْهَةٍ وأُخرى، جانبًا، وكَما اتَّفَقَ بما امتلأَ تحتَ يَدِه من صفحات، أو يُلقَى بقلمٍ حفيَت بَريَتُه، ويَتناوَلُ غيرَهُ، فَقَد كانَ وهُوَ يُؤَلِّفُ يَتَدفَّق في كِتابَتِه من الذّاكرةِ، ويتدافَعُ كالسَّيلِ في الكِتابَةِ ليلحق بخَواطِرِه وأفكارِه. ولِشِدّةِ تَركيزه فيما يَكتبُ يَنسَى أن يَشْرَبَ قَدَحَ الماءِ حينَ يَظمأ، ويَنسَى أن يَأكُلَ والطَّعامُ معدٌّ لَه، يَنسَى أنَّه

ظَمآن، وأنَّه جائعٌ. وخادِمُه وجاريتُه جالسانِ بالقُربِ منه، يَنْظُرانِ إليه بإشفاقٍ، دون أن يَجرُؤَ أحدُهُما علَى قَطعِ خواطِرِه، أو شَغْلِه عَن عَمَلِه.

ويَتعب ابنُ النّفيس مِن الكتابةِ، وتُجْهَدُ عضَلاتُ كَفِّه، فيَنْهَضُ من مَجلِسِه، ويُغادِرُ دارَه، ويَمشِي مُسرِعًا، وخواطرهُ لا تَزالُ في شُغْلٍ شاغلٍ، حتى يَصِلَ إلى بابِ الزُّهومة، يَتبَعُه خادمُهُ في صَمت، حاملاً الأوراقَ والأقلامَ المَبريّة. ويدخُل ابنُ النَّفيس الحمّامَ ليَغْتَسِلَ، وهُوَ لا يَزالُ يُفكِّرُ. ويستسلمُ لغاسِلِه في الحَمّام، وعقلُه لا يَزالُ يَعمَل. ويُفاجَأ بالرَّغبَةِ في الكِتابَةِ، وتَسجيلِ أفكارِه، فَيُغادِرُ حَوْض الحَمّام، ويَجلِسُ على أريكةٍ من الرُّخامِ، ويُقَدِّمُ لَه خادمُه الأوراقَ والأقلامَ، ويأخُذُ في كِتابَةِ مَقالةٍ في نَبْضِ القَلْب، ولا يَرفَعُ يَدَه عَنها إلاّ عِندَما يَفرغُ من مقالتِه. عندئذٍ فَقَط، يَعودُ لينزلَ في حَوضِ الحمّام، ويستسلِمَ من جَديدٍ لغاسِلِه. ثم يعودُ إلى دارِه مُستَريحَ الجَسَدِ والعَقْلِ، ويَنامُ ساعةً، قَبْلَ أن يتوجَّهَ إلى المدرسةِ المَسْروريّة، أو إلى البيمارستان النّاصِرِيّ.

أمامَ دكّان عطّار

في الطّريق، قد يحلُو لابنِ النَّفيس أن يَجلسَ أمامَ دُكّان صديقِه «العطارِ الشّرابي»، على أريكةٍ خَشَبيّةٍ. ويتنبَّهُ إليه بَعضُ المارّة، فيتوقَّفُونَ عندَه، ويَستَشيرونَه في دواءٍ لِمَا بِهم مِن مَرَضٍ. وقَد يَشكُو مِنَ القُرْحَةِ، وهذا مِنَ البَرد، وذاكَ مِنَ الإسهالِ، فَيَصِفُ البَلِيلَةَ لِمَن يَشكُو القُرْحة، واللَّحمَ المطهوَّ بالتّوابلِ لِمَن يَشكُو مِنَ البَرد، والخرُّوبَ لِمَن يَشكُو مِنَ الإسهالِ، فَيَضيقُ بِه صديقُه العَطّار، لأنّه يَعوقُ رزقَه، ويَصيحُ بِه، وابنُ النّفيس يَضحك:

- إذا أَرَدْتَ يا ابنَ النَّفيس أن تَصِفَ هذهِ الوَصْفات، فاقعُدْ عِندَ دُكّان لَحَّام (جزّار). أمّا إذا جَلَستَ عِندي فَلاَ تَصِفْ للمَرضَى سِوَى السكر، والشّرابَ، والأدْوية. فهذهِ بضاعَتِي.

وذاتَ يومٍ قَدِمَ أبو الثناءِ الحلبّي الكاتبُ إلى ابن النّفيس وهو جالسٌ عِندَ صَديقِهِ العَطّار، وسَألَه عَن عِلاجٍ لِوَرَمٍ في يَدِه. وفَحَصَهُ ابنُ النّفيس، ثُم قالَ لَهُ في تَواضُعٍ:

- أَعرفُ صِفةَ الورَمِ، وأَعرفُ أسبابَه، ولكِنَّني لا أعرفُ عِلاجًا لَهُ، فاسْأَلْ غَيرِي.

ويَغضَبُ العَطّارُ مَرّةً أُخرَى، لأنّ ابنَ النّفيس لَم يَصِفْ لَه دَواءً ممّا يَبيعُه في دُكّانه، ويَعجَبُ لأنّ صاحِبَهُ على شُهرَتِه في الطّبِّ، وعِلْمِه بِه، قَليلَ الخِبْرَةِ بالمُداوَاةِ والعِلاجِ. ويَعجَبُ لأنّ صاحِبَهُ لاَ يَخجَلُ مِنَ التَّصريحِ بِأَنَّهُ لاَ يَعرِفُ. فَيقولُ لَهُ ابنُ النّفيسِ:

- لَقَد شَغَلْتُ نَفسِي بِعِلْمِ الطّبِّ في ذاتِه، وحَسْبِي بَينَ زُمَلائِي

الأطِباءِ حُسنُ التَّشخيصِ لِلمَرَضِ، وبَيانُ أسبابِه، وأعراضِهِ. وعليهم هُمَ أن يَصِفُوا لَه العِلاجَ.

* * *

في البيمارستان، وفي دارِه بالرَّوضَةِ، وفي الحمّامِ، وفي نُزْهاته الخَلَوِيّة بجزيرةِ بَدْرَان، وفي قاربٍ يَركَبُه في مَجْرَى النّيل، كان ابنُ النّفيس يُفْرِغُ قَلْبَهُ وعَقْلَهُ، منذ وَطِئَتْ قَدَماه أرضَ القاهرة، للتَّأليفِ والتَّصنيفِ، مِن صَدرِه، ومِن غَيرِ مُراجَعةٍ. وهو عَلى ثِقَةٍ بذاكِرَتِه، وبما يَكْتُبه، ويقولُ لِمَن يَلومُونَه عَلى إفراطِه في التَّأليفِ:

– لَو لَم أكُنْ على ثِقَةٍ مِن أنَّ تصانيفِي سَتَبْقَى بَعدِي عَشرة آلافِ سَنَةٍ، لَم أكتُبْ فِيها حَرْفًا واحِدًا.

ومثلما كانَتْ ذاكرةُ ابن النّفيس باهِرَةً، كانَت قوتهُ العَقْلِيّةُ النّقديّةُ نادِرَةً، انتَقَدَ عالِمَ الطّبِّ الإغريقِيّ «جالينوس» ووصَفَهُ بالعَجْزِ والإسهابِ. ولَم يَكُنْ يَجْرُؤُ فِي زَمانِه عَلى انتقادِه سوى قِلّةٍ مِنَ العُلَماءِ. وكانَ ابنُ النّفيس مُحِقًا فِي انتقادِه لَه، وهو الذي وَضَعَ لمؤلفاتِه الشُّروحَ والمُختَصَرات.

وانتَقَدَ ابنُ النَّفيس بعضَ آراءِ ابن سينا في الطّبِّ. وكانَ مُحِقًا في انتِقادِه لَه، فهو الذي بَسَّطَ للأطباءِ كِتابَه «القانون» في الطّبِّ، ليكونَ في مُتَناوَلِ دارِسِي هذا العِلْمِ، بل إنّه شَرَحَه في عِشرينَ مُجَلَّدًا.

ولم يُعارِض أحَدٌ من أطباءِ مصر انتقادَ ابن النّفيس لابنِ سينا وجالينُوس. فَقَدْ كانوا يُجِلُّون عِلْمَه، ويَحتَرِمُونَه، ويَقولُونَ: «إنّ ابنَ النّفيسِ هو ابنُ سِينا الثاني».

وطَمِحَ ابنُ النّفيسِ إلى تَجميعِ كلِّ ما وَصَلَ إليهِ الطّبُّ في زَمانِه، في مَوْسوعةٍ طِبِّيّةٍ، تُضاهِي مَوسوعَةَ «الحاوِي في الطّبِّ لأبِي بَكرٍ الرّازي، فَشَرَعَ فِي كِتابَةِ مَوسوعةٍ طِبِّيّةٍ بعُنوان: «الشّامِلِ في الطّبِّ»، تَقَعُ في ثلاثمائةِ جُزءٍ، لَم يُقدّرْ لَه أن يكتُبَ مِنها سوَى ثَمانينَ جُزءًا. ولَم يُقدّرْ لَنا أن يصِلَ إلينا منها سوَى فِقَراتٍ. لكن ابنَ النّفيس وضعَ لهذا الكِتابِ وقبلَ أن يُتِمَّه مُوجَزًا، سَمّاه: «المُوجَز في الطّبِّ» وقد أصدَرَتْه المَطابِعُ حَديثًا.

وعَن المَرضَى المُصابينَ بحالةِ انْسِكاب صَديديّ، في الخزانةِ المُتقدّمة منَ العينِ عندَما يَتحرّكون، كَتَبَ ابنُ النّفيس كِتابًا بعنوان: «المُهَذِّب».

وعَن غذاءِ المَرضَى بأمراضٍ حادّةٍ، كتَب ابنُ النّفيس كِتابًا بِعنوان: «المُختارُ من الأغذيةِ».

* * *

لكن أهمَّ كِتابٍ أَلَّفَه ابنُ النَّفيس، كانَ كِتابَهُ «شَرحُ تَشريحِ ابنِ سينا». فبهذا الكِتابِ صارَ ابنُ النَّفيس يُعدُّ مَفخرةً مِن مَفاخرِ الطِّبِّ العَرَبِيّ.

في الكِتابِ الأَوَّلِ من «القانون» كانَ ابن سينا قد قَدَّمَ عَرضًا لِتشريحِ العِظامِ، والعَضَلاتِ، والأعصابِ، والأَوْعيَةِ.

وفي الكتابِ الثّالثِ منَ «القانون» كانَ ابنُ سينا قد قَدَّمَ عَرضًا لِتشريحِ كلِّ جُزءٍ من أجزاءِ الجِسمِ، وبيَّنَ وظائفَهُ وأمراضَه، ووضَعَ تَشريحَ المُخِّ مَعَ أمراضِ الرَّأس، وتَشريحَ العَيْنِ مَعَ أمراضِ العَيْن، وتَشريحَ الأنفِ مَعَ أمراضِ الأنفِ... وهكذا.

ولم يُعجِب ابنُ النَّفيس ما فَعَلَه ابنُ سينا بالتَّشريحِ، فقَد بَعثَرَ مَعلوماتِه في أبوابٍ مُتفرِّقة، في جُزْئَيْنِ مِن كِتابِه «القانون».

وقَرَّرَ ابنُ النَّفيس أن يَجعلَ مِنَ التَّشريحِ علمًا مِن عُلومِ الطِّبِّ، قائمًا بِذاته، فَراحَ يَجمعُ المَعلوماتِ التي وَرَدَت عَنِ التَّشريحِ في كِتابِ «القانون»، ويعلِّقُ علَيها، حَتّى أَنجزَ كِتابًا ضَخمًا يَقعُ في ثلاثمائةِ صفحة، وعُنوانُه: «شَرْحُ تَشريحِ ابن سِينا».

وَفي هذَا الكِتاب، عارضَ ابنُ النّفيس في تَعليقاته طائفةً مِن معارفِ التَّشريحِ، كانَ قَد قالَ بِها جالينوس، وابنُ سينا.

وقدَّم ابنُ النَّفيس لِكِتابِه هذَا بمقدمةٍ، يُعينُ بِها الطَّبيبَ على إتقانِ العِلْمِ بفَنِّ التَّشريحِ، وتَحدَّثَ في مُقَدِّمَته هذه عَنِ اختِلافِ الأعضاءِ بَينَ الحيَوانات، وعَن فَوائِدِ علمِ التَّشريحِ، وعَن مَنافعِ الأعضاء، وعَن ماهيَةِ التَّشريحِ وآلاته.

وَفي هذه المُقدمة، تَحدَّثَ ابنُ النَّفيسِ عَن تَشريحِ العِظامِ والمَفاصلِ، وبيَّنَ أنَّها يَسيرة إذا أُجْرِيَ التَّشريحُ في أجسادِ المَوْتَى... وعَن تَشريحِ القَلبِ، والشَّرايين، والحِجاب، والرِّئَة، و ذكَر أنَّه لاَ يَكونُ تَشريحًا دَقيقًا إلاَّ إذا حَدَثَ في الجِسمِ وهُوَ حَيّ... وعَنْ تَشريحِ العُروقِ الصِّغارِ التي في الجلدِ، وبيَّنَ عدمَ فائدةِ التَّشريحِ لَها، إذا أُجْرِيَ التَّشريحُ في أَجسادِ مَن ماتُوا

بِسَبَبِ إسهالٍ أو نَزْفٍ، ويُسْرَ هذا التَّشريحِ فيمَنْ ماتُوا بالخَنْق، وبعْدَ المَوت مُباشَرَةً، لتجَنُّبِ تَجَمُّدِ الدَّمِ في العُروقِ.

وَوَصَفَ ابنُ النَّفيس جُثَثَ المَوْتَى، وهِيَ في مَرحَلةِ انحلالِ اللَّحمِ، وظُهورِ العِظامِ والأربِطَةِ مِن تَحتِ اللَّحم.

أَليسَتْ هذهِ آراءُ طَبيب، لاَ بُدَّ وأَن يَكونَ قَد مارَسَ التَّشريحَ بِيَدِه؟

فَهَلْ مارَسَ ابنُ النَّفيس التَّشريحَ خِلسَةً، وَوَقَعَ في فِعلِ أَمرٍ مَحظورٍ في زَمانِه، فَقَد كانَتْ للجِسمِ البَشَرِيِّ حُرمة في المَوتِ لاَ يَجوزُ انتِهاكُها؟!

إنَّ ابنَ النَّفيسِ كانَ يُرَدِّدُ دائمًا في كِتابِه هذَا القَول: «والتَّشريحُ يُكذِّبُ هذَا»، وهو يَرُدُّ عَلى ابن سِينَا.

مكتشف الدّورة الدّموية الصُّغرى

والجَديدُ، أهَمُّ الجَديدِ، الذي قَدَّمَه ابنُ النَّفيس في شَرحِه لِتَشريحِ ابن سينا، هو رَأيُه في دَورةِ الدّم، أي حَركةِ الدّم في دَائِرة، وهِيَ المَعروفَةُ في زَمانِنا باسمِ: «الدَّورةُ الرِّئَوِيّة».

كانَ الفراعِنَةُ يَعتَقِدون أنَّ الدَّمَ يَنتَقِلُ مِنَ القلبِ إلى الجِسْمِ عَن طَريقِ الأوعِيَةِ الدَّمَوِيّةِ، والقَنَواتِ، والأوتارِ، مِن خِلالِ حَرَكَةِ النَّبْضِ.

وجاءَ جالينوس عالِمُ الطِّبِّ الإغريقِيّ، وقالَ بتوزيعِ الدّمِ مِنَ القَلبِ إلى الجِسمِ، في حَرَكَةِ مَدٍّ وجَزرٍ، وعَبْرَ الشَّرايين نَفسِها.

وجاءَ أَبُقراط عالِمُ الطِّبِّ الإغريقِيّ، وقالَ: إنَّ الكَبِدَ هُوَ الأَصلُ في الدَّمِ، وفي حَرَكَتِه، ويَصِلُ إليه مِنَ الأَمْعاءِ عَن طَريقِ الوَريدِ البابِيّ، ثُمّ يَنتَقِلُ عَن طَريقِ الوَريدِ الأَجْوَف، إلى البُطَيْنِ الأَيْمَنِ، ومِنهُ إلى بَقيّةِ الجِسمِ عَن طَريقِ الأوردةِ، وفي حركةِ مَدٍّ وجَزرٍ مُتَّصِلة، لَيسَ لَها دَورَةٌ.

وجاءَ أَطِبّاءُ مَدرسةِ الإسكندَرِيّةِ، فعادُوا إلى التَّعاليمِ الطِّبِّيّةِ المِصرِيّةِ القَديمة.

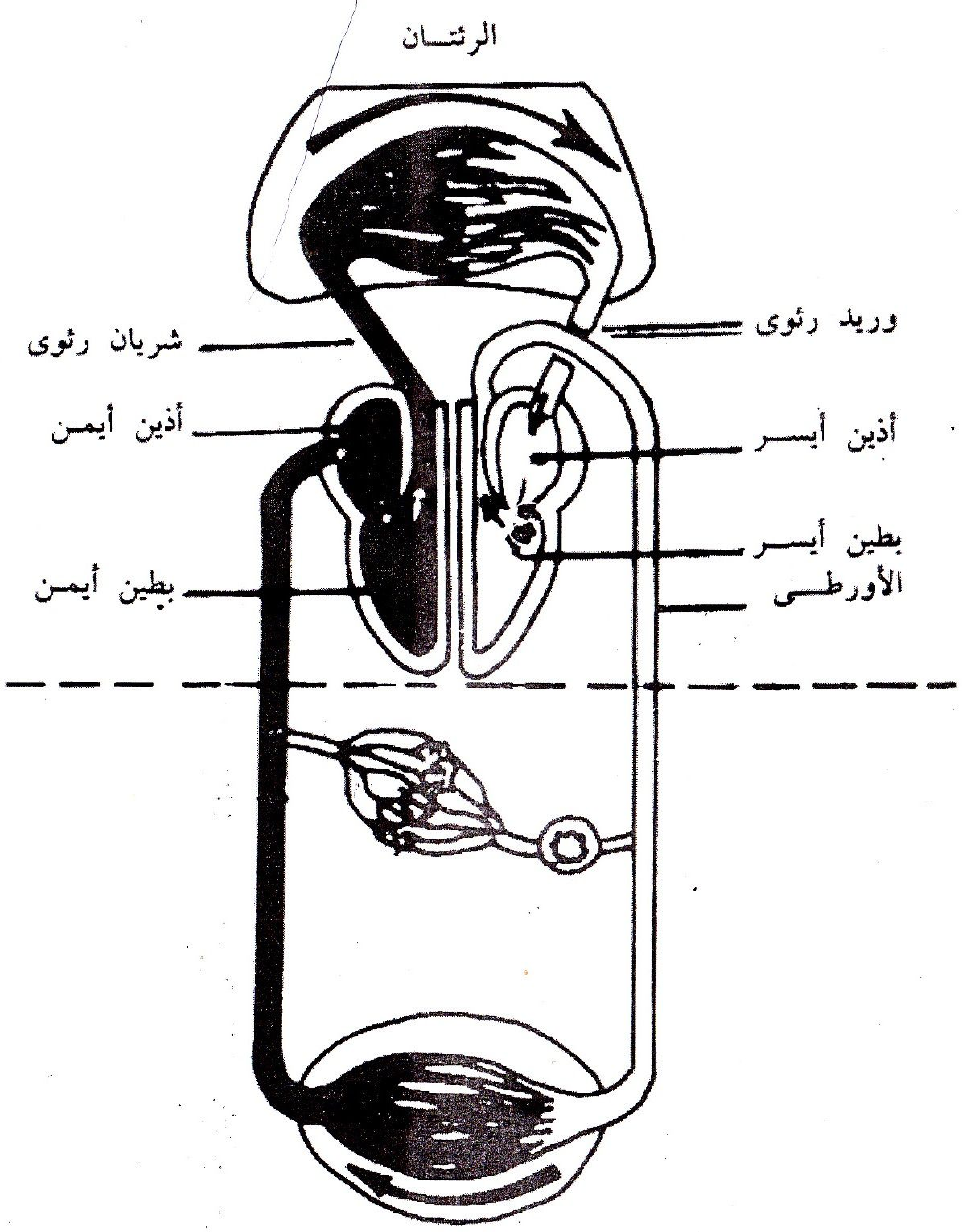

الدورة الدموية الصغرى (الدورة الرئوية)
اكتشفها «ابن النفيسى» قبل «وليم هارفي»

وأَخَذَ ابنُ سينَا بنظريةِ عالمِ الطِّبِّ الإغريقيِّ جالينوس في دَوْرَةِ الدمِ.

وتَقدَّمَ ابنُ النَّفيس في شَرحِه لتشريحِ ابن سينا، فَصَحَّحَ هذهِ الآراء.

قالَ إنَّ عَدَدَ تَجاويفِ القَلبِ اثنانِ، ولَيسَ ثَلاثةً، كَمَا كانَ يَقولُ ابنُ سينا ومَن سَبَقَهُ.

وقالَ إنّ اتّجاهَ الدّمِ يَمُرُّ مِنَ التَّجويفِ الأَيْمَنِ إلى الرِّئة، ويُخالطُ الهَواءَ بها، ثُمَّ يَعودُ مِنَ الرئة عَن طَريقِ الشّريان الوَريديّ (الوَريدُ الرئَويّ) إلى التَّجويفِ الأيْسَرِ بالقَلب، ومنهُ يُوَزَّعُ على سائِرِ الجِسمِ.

وبِهذَا الرَّأيِ قَدَّمَ ابنُ النَّفيس لعلمِ الطِّبِّ نَظريةً جَديدةً تَقولُ بدورةٍ للدَّمِ بَينَ القَلبِ والرِّئَة، وبَينَ الرِّئَةِ والقَلب، فَوَضَعَ بِذلِكَ أَساسَ «الدَّورةِ الدَّمويّةِ الصُّغرَى» أو «الدَّورة الرِّئويّة».

ولَو تَقَدَّمَ ابنُ النَّفيس خطوةً برأيه هَذا لَقالَ أيضًا بالدَّورةِ الدَّمويّةِ الكُبرى في سائرِ الجسمِ، مِنَ القَلبِ إلى الجسمِ ثُمَّ مِنَ الجسمِ إلى القَلبِ ثُمَّ مِنَ القَلبِ إلى الرِّئَةِ، ثُمَّ مِنَ الرِّئَةِ إلى القَلبِ، ثُمَّ مِنَ القَلبِ إلى الجِسمِ... وهَكَذَا.

هل اسْتَفادَ عُلماءُ أوربا من نظرية ابن النفيس؟

كانَ القَرنُ الذي عاشَ فيه ابن النّفيس، عالِمُ الطّبّ العربيّ، ومُكتَشِفُ الدَّورةِ الدَّمَويّةِ الصُّغرَى، لأوّلِ مَرّة، هو القَرنُ الثالثُ عشر الميلاديّ (قَبلَ سبعمائة سنة).

وفي هذَا القَرنِ كانَت الجامعاتُ الغَربيّةُ آخذةً في النُّشوءِ والظُّهورِ، وكانت تَتَطَوَّرُ عِلْميًا ببطءٍ. وفي مُقدّمَتِها «جامعة بادُوَا» في مدينةِ «بادُوَا» الإيطالية. وقَد جاهَدَتْ هذهِ الجامعة إلى أَواخرِ القَرنِ الخامسِ عشر الميلادِيّ، لدراسةِ عِلْمِ التَّشريحِ الوَصفيّ، الذي شُغِلَ بِه كلٌّ مِن ابن سينا، وابن النّفيس، عالمَيِ الطِّبِّ المُسلمَيْن.

وإلى نهايةِ القرنِ الخامسِ عشر الميلادِيّ، لم يَكُنْ أحدٌ من علماءِ جامعة «بادُوَا» قَد قالَ بالدَّورةِ الدّمويةِ الصُّغرَى، بَينَ القَلبِ والرِّئة، وبالعَكس، أو اهتدَى إليها.

لَكنَّ علماءَ جامعة «بادُوَا» بَدَأُوا يَتَحدَّثُون عَن الدَّورةِ الدّمويّةِ الصُّغرَى، مَعَ مُنتَصَفِ القَرنِ السَّادس عشر الميلادِيّ، في مَطالِعِ عَصرِ النَّهضَةِ الأوروبيّة.

فَهَل كانَ لابنُ النّفيس أَثَرٌ في وَصف علماءِ أوروبا لِلدّورةِ الدمويّة الصُّغرَى، في ايطاليا، ثُمَّ مِن بَعدِها في انجلترا فِي عَصرِ النَّهضةِ؟

في مُنتصفِ القرنِ السّادسِ عشرَ الميلاديّ، نَشَرَ الطَّبيبُ الإيطالي «إلباجو»، ترجمةً باللُّغةِ اللاّتينيّة، لأجزاءٍ كَثيرة مِن كتابِ ابن النفيس «شرحُ تَشريحِ ابن سينا». وكانَ هَذا الطَّبيبُ قَد عاشَ بِضعَ سَنَواتٍ في الشَّرقِ الإسلامِيّ.

وَمضَتْ ستُّ سَنوات عَلى نَشْرِ هذهِ التَّرجَمة، ثُمَّ ظَهرتْ ثَلاثَةُ مُؤَلّفات لثلاثة علماءِ الطِّبِّ في جامعةِ «بادْوَا»، تَتحدَّثُ كُلُّها عَن «الدَّورةِ الدّمويّةِ الصُّغرَى». وهؤلاءِ العُلماء الأطباء هُم: «ميجيل سيرفتُوس» الإسبانيّ الأصل، و «ريالدُوا كولُومبو» الإيطالي، و«أندريّا سيزالْبيتو» الإيطالي، وكانَ «أندريّا» هذا هُو أوّلُ مَن استَعملَ لَفظَ «دورة»، في حديثه عَنِ الدَّورةِ الدَّمَويّةِ الصُّغرَى.

ثُمَّ... جاءَ «ولِيَم هارفي» الإنجليزِيّ، في القرنِ السّابع عشر الميلاديّ، وكانَ قَد تَخرَّجَ مِن جامعة «بادْوَا» فَوصَفَ الدّورةَ الدمويّةَ الكاملة (الصُّغرَى، والكُبرَى) في كتابه: «دراساتٌ تَحليليّة تَشريحيّة لحركةِ القَلبِ والدّمِ فِي الحَيوان.

ولم يشِر «هارفِي» في كتابِه هذا بحرفٍ إلى مصادرِه العَرَبيّة، أو الإيطاليّة.

وظَنَّ علماءُ الطّبِّ في العالمِ كلِّه طُولَ القُرونِ التّالية، أنّ «وليم هارفي» الإنجليزي هُو مكتشفُ الدّورةِ الدّمويّةِ الصُّغرَى، وغَفلوا عَن اكتِشافِ ابن النّفيسْ لَها لأوّلِ مَرّةٍ، وتَناسَوْا استفادةَ علماءِ جامعةِ بادْوَا السّابقينَ، الذين قالُوا بِها أيضًا، بعدَ اكتشافِ ابن النّفِيس لَها.

ثُمَّ فُوجِئَت الأوساطُ العلميّةُ في أرجاءِ العالمِ بطبيبٍ مصرِيّ عَالِم، هو الدُّكتور «مُحيي الدّين التَّطاوي» يُعلِنُ في العقْدِ الثّالث مِنَ القَرنِ العشرين، في أَثناءِ دراسَتِه للطِّبِّ في كليةِ طِبّ برلين، عَن عُثورِه عَلى مَخطُوط «شَرحُ تَشريح ابن سينا» لابن النفيس، ويتقدّمُ به عامَ (1924) في رسالةٍ جامعيةٍ لنيلِ درجةِ الدُّكتوراه مِن جامعة «فرايبورج» بألمانيا، موضوعُها «الدّورةُ الدَّمويّةُ تبعًا للقَرشيّ»، وفيها يقولُ: إنّ ابنَ النّفيس هو المُكتَشِفُ الأوّلُ للدّورةِ الدّمويّةِ الصُّغرَى في القرنِ الثالث عَشر، أَي قَبلَ «هارفي» بأربعمائةِ سنةٍ.

وذُهِلَ أساتذَةُ التّطاوي والمُشرِفُون عليه، ولجَهْلِهِم باللُّغةِ العربيّةِ التي كُتِبَ بِها مَخطوطُ ابنُ النَّفيس لَم يُصدِّقوه، و أَرسلُوا بنُسخةٍ

مِن رِسالَتِه إلى الدُّكتور «مايرهوف» الطَّبيبُ المُستَشرِق الألمانِيّ، وكانَ وَقتَها مُقيمًا بالقاهِرة وطَلَبُوا رَأيَه في هذهِ الرِّسالة.

ولَم يَكَدْ مايرهُوف يَطَّلِعُ عليها، وعَلى المَخطُوط المَفقود لابنِ النَّفيسِ، حَتّى كَتَبَ إلى أساتذةِ التَّطاوِي والمُشرفِين عليه، يُؤَيِّدُ صِحّةَ المَعلوماتِ التي جاءَت في رسالَتِه، وطيَّر مايرهُوف الخَبَرَ إلى المُؤَرِّخ «جورج سارتون» فَنَشَره فِي الجُزءِ الأخيرِ مِن مُؤَلَّفهِ الضَّخمْ في تاريخِ العُلوم. وراحَ مايرهُوف يَبْحَثُ في مكتباتِ العالمِ عَن مَخطوطاتٍ أُخرَى لابنِ النَّفيس، ويَنْشُر عَدَدًا مِنَ المقالاتِ عَنهُ. فعادَ نَجمُ ابن النَّفيس للظُّهورِ، بَعْدَ أنْ خَبَا ضَوؤُه سَبعةَ قُرونٍ، كواحدٍ مِن العباقرةِ المُكتَشِفين العِظام.

ابن النفيس ينشيء بيمارستانا

وكانَ ابن النّفيس قَد بَلَغ مِن العُمرِ، أربَعًا وسَبعينَ سَنَةً، حينَ كلَّفَه السُّلطانُ قَلاوُون، مُؤَسِّسُ المماليكِ البُرجية، ببناءِ بيمارستانٍ جديدٍ بالقاهِرة.

ونَهَضَ ابن النفيس بالمهمةِ التي كُلِّفَ بها، وأشرفَ طبِّيًا على إنشاءِ البِيمارستان: الأقسام، والقَاعات، والصَّيدلية، والمَكتبَة،

والإيوان، والغُرف الخاصّة بالأطباءِ، وأنجزَ مُهِمَّتَهُ فِي ثمانيةِ أشهُرٍ فَقَط.

وعَيَّنَ السُّلطانُ قَلاوُون ابن النَّفيس رَئيسًا لهذا البيمارستان، وأَطلَقَ عليهِ اسم: «البيمارستان المَنْصُورِيّ».

وَداعٌ... فِي العَام الأَخير

في القاهِرةِ عاشَ ابنُ النَّفيس ستّا وخَمسِينَ سَنَةً، إلى أن بَلَغَ مِنَ العُمرِ ثماني وسَبعينَ سنةً، وشَهِدَ خِلالَ عُمرِه بِمصر، أواخِرَ الدَّولةِ الأَيّوبِيّة، ودَولة المَماليك البَحريّة مِن بدايَتِها إلى نِهايَتِها، وقِيام دَولةِ المماليكِ البُرجية، التي أَسَّسَها السُّلطَانُ قَلاوُون وعَاشَ فِي ظِلِّ هذهِ الدُّوَلِ الانتِصاراتِ والهَزائِمَ، وأَمجَادَ شَعْبٍ وانتِكاساتِه.

وفي العامِ الأخيرِ، كانَ ابن النَّفيس يَسيرُ في شَوارِعِ القاهِرة وحواريها سَيْرَ مُودّع، يُشاهِدُ رَوْعَةَ عَمائِرِ الأيّوبيّين، والمَماليك التي أُقيمَتْ بالعَسَفِ والاستِبْداد، والدَّسائسِ والمَظَالِم، ويتَملَّى جَمالَ المَآذِنِ المُزَخرَفَة الشَّاهِقَة، تَعلُو جِباهَ المَساجِدِ المَملُوكيةِ، مِن عَهدِ بيبَرسْ إلى عَهدِ قَلاوُون، وواجهاتِ المَساجِدِ الزّاخرةِ بالطُّنُفِ، والتّيجانِ، وألوانِ الزَّخرفَةِ

الهَندَسيّةِ، وقِبَابِهَا الكَبيرةِ والصَّغيرةِ التي تَعلُو مَداخِلَ المَساجِدِ والمَحاريبِ، وأَسْقُفِهَا المَطليّة بِماءِ الذَّهبِ.

ويتوجَّهُ ابنُ النَّفيس إلى الجامعِ الكبيرِ بالحُسَيْنيّة، ويَشهَدُ المَماليكَ وهُمْ يَتَسابقُون في لُعبةِ «القَبَق» يحاولُون واحدًا بَعدَ الآخَرِ أن يُصيبُوا بِسهَامِهم قَفصًا مِن ذَهَبٍ خَالصٍ، بِه حمامَةٌ وَديعةٌ في أعلى عَمُودٍ مُرتَفِعٍ، وهم يَركضُون على خُيولهِم، والمُتَسابِق الذي يَختَرِقُ سَهْمُهُ القَفَصَ، يَنْفتِحُ بابُهُ، تَفِرُّ مِنه الحَمامَةُ طائرَةً في الفَضاءِ الفَسيحِ، يُكافَأُ كَرامٍ ماهِرٍ بالقَفصِ الذَّهَبِيّ شاهِدًا عَلى مَهارَتِه.

ويَعودُ ابنُ النَّفيس إلى دارِه، وينقّل كَفّه بَينَ أَربعَةَ عشرَ كتابًا أَلَّفَها في الطِّبِّ، وبينَ كتبٍ أُخرَى لَه أَلّفَها: في النَّحوِ، والمَنْطِقِ، والفِقهِ، والسِّيرةِ، والحَديثِ، والفَلْسفَةِ.

وَمَعَ اللَّيلِ، يَجلسُ ابنُ النَّفيس فِي ضَوْءِ مِشْكاةٍ، ليقرأَ في كِتابٍ لَه بعنوانٍ عَجيبٍ هو: «فاضِلُ بن ناطِقٍ». وكانَ ابنُ النَّفيس قَد أَلَّفَه، ليُعارِضَ بِه آراءَ فَلسَفيّةً لابن سِينا، في كِتابِه: «حيّ ابن يَقظان» مُعارَضةً فِقهيّةً.

الوصيّة

ويَضَعُ ابنُ النّفِيس كِتابَه، ويُخالِجُهُ شُعُورٌ بالنِّهايةِ، فيتناولُ قَلَمًا ووَرَقًا، ليكتُبَ وصيّتَهُ، ويُوصي في وصيّته بمالٍ لجاريته وخادمِه، ويَهبُ ما بَقِيَ مِن مالِه الوَفيرِ للبيمارستان المَنصوريّ الجَديد، كَما يُوصِي لِهذا البيمارستان ببيتِه، وبِمكتَبَتِه، وكانَ اليَومُ يَومَ أحَد.

كانَ ابن النَّفيس يَشعُرُ بالضّعف، فَحَمَلَ نَفسَه حملاً مِن مَجلسِه، وفي يَدِه وَصيّته، وَمَشى بِوَهنٍ إلى أن وَصلَ غُرفَةَ نومِه، وتَمَدَّدَ على سَريرِه المُتواضعِ، وَوَضَعَ وَصيّته تَحت وِسادَتِه.

وفي اليَوْمِ السّادسِ، مُنذ مُلازَمَتِه لِفراشِه، وكانَ يومَ جُمُعة، أسْرَعَ الخادمُ في ظَلامِ اللّيلِ، يُخْبِرُ عَدَدًا مِن الأطباءِ بمرضِ سَيّدِه مَرَضًا شَديدًا، فَأسرَعُوا إليه يحاوِلُون تَطبيبَهُ ومُداواتَه.

وأيقَنُوا بَعدَ فَحصِه، أنّه في يَومِه الأخيرِ.

وأشارَ أحَدُهم عَلَيه بِتَناوُلِ شَيءٍ مِنَ الخَمرِ، زَعَمَ لَه أنّ فيهِ بُرءًا مِن عِلّتِه، فَقال ابن النَّفِيس مُبتَسِمًا بِوَهَنٍ وضَعْف:

– لا. لا ألقى اللّه تَعالى، وَفي أحشائِيّ شَيءٌ مِنَ الخَمرِ.

وعِندَ السَّحَر وفي يومِ الجُمعة، بعثَ ابنُ النَّفيس بوَصيّته للسُّلطان قَلاوُون، وأغمَضَ عَيْنَيْهِ إلى الأبَدِ، في اليومِ الحادي والعِشْرين مِن شَهرِ ذي القِعدة، في العامِ السّابعِ والسّتّينَ وستّمائةٍ لِلهجرة، الثّامِن والثّمانينَ ومائتينِ بَعدَ الألْفِ الأُولى لِلميلاد.

وفِي الصَّباحِ، هَبَّ العلماءُ والأعيانُ، وذَهَبُوا إلي بَيتِه، وحَمَلُوه علَى أكتافِهِم، وَصلُّوا علَيه في المَسجدِ، ثُمَّ سارُوا بِه، يَتَقَدَّمُهُم السُّلطانُ قَلاوُون، حَتّى وَسَّدوه الثَّرَى.

1

إبن النفيس

قصة حياة ابن النفيس عبقرى الطب العربى الذى جعل من معارف التشريح علما مستقلا، وكشف أسرار القلب، واكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل وليم هارفى بأربعة قرون، إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الكبار و الصغار.

صدر من هذه السلسلة:

1- إبن النفيس
2- إبن الهيثم
3- البيروني
4- جابر بن حيان
5- إبن البيطار
6- إبن بطوطة
7- إبن سينا
8- الفارابي
9- الخوارزمي
10- الإدريسي
11- الدميري
12- إبن رشد
13- إبن ماجد
14- القزويني
15- إبن يونس
16- الخازن
17- الجاحظ
18- إبن خلدون
19- الزهراوى
20- الأنطاكي
21- إبن العوام
22- الطوسي
23- الكاشي
24- الوزان
25- إبن الرزاز
26- تقي الدين
27- الرازي
28- الكندي
29- الخليل
30- إبن حمزة
31- الزرنوجي
32- يوحنا بن ماسوية
33- ياقوت الحموي
34- ثابت بن قرة
35- ابن ملكا
36- ابن الشاطر

453

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-278-5
Dépôt légal: 1698-2006